الفصل التاسع

قال الشيخ : ـ تحدثنا عن الفكر الجزئي الذي شع عن الفكر الكلي وذهب مع مدد من الأسماء جند الرحمن إلى عالم العناصر ليخرج مالدى معقولاته من خزائن الصفات وتضاد الصفات . وقلنا إن هذا الخروج والإخراج ضروري لعمارة الكون . خذ مثلاً على هذا تطور الحضارات ونموها في كل ميدان من ميادين الحياة . اللغة مثلاً كانت إشارات وأصوات مبهمة عند الإنسان البدائي ، ثم بدأ طور تقليد أصوات الحيوانات والطيور ، ثم انتقل الإنسان إلى طور الحروف وتشكيل الكلمات . وتتقاسم الطبيعة من الخارج والعقل من الداخل العمل لتطوير ما بُدىء من بدء الحياة . فمحاكاة الطبيعة وتقليدها مدد ، والكليات التي تلهم النظريات مدد ، ومن المددين تطور فكر أبن آدم مع الأحقاب وأمّد بما عنده حتى العقل الكوني نفسه .

لقد كنت أحاور ذات يوم صوتي الإلهي فسألته : هل أنت الله ؟ فقال : أجل ، فقلت : إذاً فأنت تعرف كل اللغات ، فقال : بالطبع ولكني لا أكلم الجزء إلا بلغته . فرابني هذا الجواب ، خاصة وأن المشككين كانوا يزلزلونني قائماً وقاعداً وعلى جنبي ، ويقولون فيما يقولون إن الخيالات التي تجعل منها الصوفية أساساً لعلومها هي خيالات مرضى ممسوسين مصابين بالهذيان . أجل رابني جواب الصوت يا بني فقلت له : حسناً ، قل لي كلمة واحدة بالغة الصينية وأنا

أسأل عن معناها بعد ذلك من له علم بتلك اللغة ، فرد قائلاً : قلت لك أنا لا أكلم إلا حسب طبيعة المحل ، وهـذا أمر تجهله ولا سبيـل إلى وصفه أو التعبـير عنـه حتى ولا عن طريق التمثيـل والإشـارة . فـزادني هـذا ريبـة وشكـاً . قلت لنفسي : كيف يكون صوتي الداخلي صـوت الله ، والله عالمي ، ثم لا يقـول لي كلمة واحدة من لغة لا أعرفها ، وما طبيعة المحل التي لا يمكن التعبير عنها حتى بعلم الإشارة .

ومضى عـلى الحادث شهـور ، حتى رأيت ذات ليلة رؤ يـا عجيبـة . لقـد رأيت شيخاً مهيب الطلعة جليلاً حاورني ثم ضرب لي مثلاً ، ثم قال بالانكليزية This very moment ، فسألته : ما معنى This very ، فقال : معناها التأكيد ، يقـال : This very day و This very year أي هذا اليـوم نفسـه وهـذا العـام نفسه ، وكلمة very هي المستعملة للتأكيد . وانتبهت من النوم وأنا من العجب في الغاية . فلقد كنت ملماً باللغة الانكليزية ، وكنت أعرف إن very تعني الكثير مثل very much ولكنني كنت أجهل أن للكلمة معنى آخر هو التأكيد كما سمعت في الرؤ يا .

ونهضت من سريري ومضيت إلى غرفة ولدي ودخلت عليه فوجدته ساهراً يدرس فقلت له ما معنى This very year فقال مثلما قال الشيخ في الرؤ يا، فوقف شعر رأسي من الخشية وعدت إلى غرفتي وقـد بلغ مني التأثـر أن بكيت ، بكيت خاشعاً مما رأيت . فالكلمة التي سألت الله أن يقولها لي والتي لا أعرفها قـد قالهـا لي مما يثبت أن الله على علم بجميع اللغات بالفعل .

ونظر إليَّ الشيخ من ثم نظرة سابرة واستطرد قائلاً :

ـ لا تقل يا بني إن ما رأيته هـو أضغاث أحـلام ، ولا تحاول أن تفسـر ما رأيت كما يحلو لعلماء النفس اليوم أن يفسـروا فنقول مثـلاً إنني ربما سمعت هـذه الكلمـة عرضـاً ذات يوم ، خـاصة وأنني ألم بـاللغة الانكليـزيـة كـما قلت ، ثم استقرت الكلمة في اللاوعي مني بعد أن انسيتها في الوعي . . لا يابني أرجوك ، فما عذبني أحد مثلما عذبني هؤلاء الذين يحاولون تفسير كـل شيء ضمن معادلـة

الـوعي واللاوعي والشعـور والـلاشعـور . لقـد كنت أنـا نفسي أطلب معجـزة لأسكت شكوكي فهل كنت لأرضى بأن أؤمن بأن ما رأيته في الرؤيا وسمعته من كلام هو من الخوارق بالفعل لولا ثقتي بأنني ما سمعت يوماً ولا علمت أن كلمـة very تعني التأكيد بالإضافة إلى معنى الكثير ؟

وأخذ نفساً عميقاً ، ثم تابع حديثه قائلاً :

ـ ما يهمنا نحن في هذا الصدد هو أن اللغة تـطور ، فلكل لغـة عمر ولهـا أطوار ، وهي مثل الكائن الحي تولد وتنمو وتشتـد وقد تضعف وتمـوت . وهناك عوامل تفعل في اللغة يعرفها علماء اللغـة . والمهم أن اللغة رابـطة بين الإنسـان والعـالم الخارجي ، وأن التبـادل بـين الجـواني والبـراني هـو الـذي أوجـد اللغـة واخترعها وطورها ، وأن لولا خروج الجواني إلى البراني ما نشأت اللغـة أصلاً ، إذ ما كانت ثمة حاجة إلى هذه النشأة الصوتية . فعملية التبادل والتفاعل والتطور بين الباطن والظاهر والظاهر والباطن قد انعكست عـلى الفكر التجـريبي أولاً ثم امتد التأثير إلى الفكر الكلي أو العقل الكلي الذي هو عين كـل وجود . . فـالعين هنا استمدت وجوداً من العيان سبق أن تحدثنا عن مقوماته من قبل .

والكلمـة التي قالهـا لي الشيخ في المنـام لم تكن من اختـراعـه بـل هي من الخزائن التي وسعت عالم المُلك والشهـادة أي عالم العيـان . فالله قـريب ، أقرب منا إلينا ، وهو يستمعنا فهـو السميع ، ويـرانا فهـو البصير لا بحـاسة سمـع ولا بحاسة بصر ، إذ لا حاجة له سبحانه في حواس كحواسنا ، إذ قوى العقل مشعة أصلاً عنه فهو الأصل . والمهم القول إن ذاكرة الله الكلية تزداد غنى بالذاكرة الجزئية ، ولئن كان مصير الذاكرة الجزئية الفناء لكونها ذات علاقة بعالم العناصر فإن ذاكرة الله باقية لا تفنى ، سبحانه هو الوارث يرث الأرض ومن عليها .

لقد كان النبي عليه السلام خير مثال لإنسان جمع بين العلم الكلي والعلم التجريبي . فالنبي كان يأخذ عن الله بلا واسطة أو بواسطة الوحي وهو جبريل . ومع هذا فلقـد جاء في السيرة أنه لمـا مر النبي بقـوم يعالجـون أشجار نخيـل لهم فأشار عليهم بنوع من العلاج فعاد بالضر على النخل فقال : إنمـا أنا بشـر ، إذا

أخبرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به ، وإذا أخبرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر ، وأنتم أعلم بأمور دنياكم .

ويدل هذا على أن مجال العلم التجريبي قائم على التجربة وحدها ، وإن من يعايش التجربة يكون له من نتائجها خبرة لاتتهيأ لمن لا يعايش التجربة . والنبي نفسه أضاف بعقله التجريبي الكثير إلى ما أوحي إليه من العقل الكلي ، فالسنة النبوية زيادة على ما جاء في كتاب الله من فرائض في مجال العبادات ، وعندما جاءه اليهود يستفتونه في اليهودية الزانية أفتى برجمها ، ثم طبقت فتواه على المسلمين علماً أنه لم يرد نص بالرجم في كتاب الله . وكان عمر السباق إلى الوصول إلى نتائج لم تخطر ببال النبي نفسه . فعمر سبق الوحي حين أفتى بقتل الأسرى وبضرب الحجاب على أزواج رسول الله ونزل الوحي مؤيداً إياه بعد ذلك . وعمر رضي الله عنه هو القائل لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء ، وقول كهذا لم يرد فيه نص لا في كتاب رسول الله ولا في سنة رسوله . وعمر هو المؤسس الثاني للدولة الإسلامية بعد الرسول .

إن هذه الطلائع من عالم الإمكان قد كان لها ظفر السبق في مجال تطور العقل البشري المخلوق على صورة الرحمن الذي هو العقل الكلي . وكان علي صاحب الفتاوي الفقهية الشهيرة حتى أن عمراً قال فيه أعوذ بالله من مسألة ليس لها أبو الحسن . ويعد الفقه الإسلامي بحراً محيطاً من الفتاوي وأجوبة مسائل اعترضت المسلمين الذين انطلقوا من الأصول كالقرآن والحديث ولكن انتشار الفتوحات وتفرع الحضارة وتشعبها أوجد مسائل لا نهاية لها انبرى لها أئمة كبار كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأبن حنبل بالإضافة إلى أئمة آل البيت وقد افترعوا من الأصول افتراع الفحول فكونوا هذه الثروة الفقهية التي ما زالت موضع إعجاب الوارثين حتى عصرنا هذا . وقصة مبيت الشافعي عند إبن حنبل مشهورة فالشافعي لم يقم من الليل كما قام مضيفه وعجبت ابنة إبن حنبل لهذا الإمام الذي نام الليل كله ولكن الشافعي صرح في الصباح أنه حل مائة مسألة من المسائل التي تهم المسلمين خلال الليل .

فالشافعي وظف فكره إذن لإيجاد حلول لمسائل اعترضت المسلمين ولم

يكن لها جواب في الأصول ومن المهم جداً إبراز دور العقل التجريبي في مجال الاستنتاج والتركيب من الأصول . ولعل علم المنطق ما نشأ أصلاً إلا انطلاقاً من هذه القاعدة . فإن للعقل المخلوق على صورة العقل الإلهي القدرة على تفريع ما لا نهاية له من الفروع انطلاقاً من أرضية الأصول . ولقد كان للقياس والاجتهاد والرأي دور كبير في تكوين المذاهب الفقهية القائمة إلى زمننا هذا .

فلولا العقل التجريبي ما كان للمذاهب الفقهية أن تقوم ، ولولا التكريس الكامل من قبل العلماء للعلم ومن قبل الفلاسفة للفلسفة لما قيض للعلوم والفسلفة أن تبلغ ما بلغته من منزلة في عصرنا الحاضر .

خذ مثلاً المصطلحات الفلسفية التي هي لغة خاصة كأية لغة من اللغات لا بد من دراستها ومعرفتها واستخدامها في مجال التعبير عن عالم الفكر . فهذه المصطلحات هي التي يتبناها كل من انبرى للحديث عن الفلسفة أو العلوم الإلهية . وما دعوى الأخذ عن الفلاسفة التي اتهم بها الصوفية الكبار إلا نتيجة لجوء الصوفية إلى كتب الفلاسفة لفهم مصطلحاتهم واستخدامها في المجال الذي يطرقون . فالصوفية يقرؤون ، يقرؤون لأفلاطون وأرسطو وأفلوطين والفيثاغوريين ويقرؤون علم الكلام وما كتب عنه ؛ وصوفية العصر الحديث يقرؤون لفلاسفة الغرب والشرق ثم يكتبون بلغة من قرؤوا عليهم . فالفيض والصدور والإشراق والواجب والممكن والشيء في ذاته وبذاته ولِذاته والعين والعيان والتعين والقديم والمحدث إلى آخر هذه المصطلحات أخذها الصوفيون عن الفلاسفة مثلما تناقلها الفلاسفة عن بعضهم بعضاً علماً أن كل واحد منهم استخلص الشيء الخاص به واستنتجه دون سواه .

فالعام هنا عام للجميع ، وما تكتسبه الإنسانية من الفرد يكتسبه الفرد من الإنسانية . وما اكتشفه باستور في مخبره أفاد البشرية جمعاء وأنقذها من العديد من الأمراض الفتاكة . ومصباح أديسون أنار الأرض كلها . فالعقل الفردي الجزئي إله صغير يمكن وصفه بأنه أمة وحده قائم بالنور يعتمد المقدمات ويعاين ويفحص ويجرب يؤيده في الوقت نفسه الخاطر الإلهي الذي بيده القوانين الكلية يوحي بها إلى من يشاء من عباده فإذا النتيجة اكتشافات تغير وجه التاريخ .

فالعقل الكلي كلي العلم ، والعقل الجزئي جزئي العلم ،وقلنا إن حاجة الجزئي إلى الكلي لا تقل عن حاجة الكلي إلى الجزئي ، إذ أن افتضاض المكنون وتركيب النتائج من المقدمات واستخدام الحواس ظاهرة وباطنة هذا كله مع حضور الكلي في الجزئي يشكل سيرورة للعلم الكلي وصيرورة ينتقل بها من مرحلة إلى مرحلة ومن طور إلى طور .

قلت للشيخ :

ـ إذن في اعتقادك أن العالم يتقدم يا سيدي ويتطور .

أجاب :

ـ بالطبع ، وإلا فلمَ خلق الله العالم ؟

قلت مازحاً :

ـ أنت شيخ (مودرن) يا سيدي ، تقدمي . فالفلاسفة الماديون يتهمون الفلاسفة المؤمنين بالرجعية ، أي بالرجوع إلى عالم المثل ، أو إلى السماء بوصف العالم شر والعيش فيه خطيئة في حين أن الفلسفة المادية تعتمد الجدل الهيغلي وتنطلق في صيرورة متطورة لا نهاية لها .

ضم أصابعه وضرب الطاولة التي كانت أمامه وقال بحدة :

ـ العكس هو الصحيح . الماديون لا مثال لهم ويعتمدون حرب الطبقات ويحلمون بإنهاء هذه الحرب يوماً علماً أن هيغل أستاذ ماركس الأكبر يقول : العالم الحق والحكيم الأصيل هو الذي يرتد موقفه إلى تأمل بسيط للواقع وللوجود وما فيهما من حركة جدلية . إنه يشاهد ما هو موجود ، ثم يصف بالضبط ما شاهده ، وليس لديه ما يفعله غير ذلك . إنه لا يغير من هذا الواقع شيئاً ولا يضيف إليه شيئاً . وقال أيضاً :

ليست مهمة الفلسفة أن تعلم ما ينبغي أن يكون ، وحتى ولو حاولت ذلك فإنها تأتي في ذلك متأخرة لأنها لا تأتي إلا بعد أن يكون الواقع قد أتم عملية تكوين نفسه ، وحينما ترسم الفلسفة بلون رمادي على رمادي فإن صورة

الحياة تكون قد شاخت من قبل . وهذا اللون الرمادي لا يمكن أن يستعاد شبابه بل يمكن فقط أن نتعرفه . إن بومة منيرفا لا تأخذ في الطيران إلا عندما يرخي الليل سدوله . وبومة منيرفا رمز الحكمة والفلسفة عند هيغل .

واستطرد الشيخ بحماسة :

ـ نحن نعتمد الجدل وهذا صحيح ، إلا أن هذا الجدل هو الذي يغني الحياة ويبرز حدود الحق والخير والجمال والعدل وما شابه ذلك فمن منا الرجعي ومن منا التقدمي ؟

قلت بعد تفكر :

ـ هناك قضية أخرى ياسيدي ، فلقد تحدثت عن الدور الذي يقوم به العلماء والفلاسفة والمخترعون ، وأنت بهذا تعترف بصراحة بوجود وجود إلى جانب الوجود الأصلي الذي كنت تحدثت عنه ، بل إنني أرى أن الكفة قد رجحت لصالح الوجود الإضافي والجديد عن الوجود القديم . ألا يستشم من حديثك صحة هذا الاستنتاج ؟

خزرني مضيقاً عينيه وقال :

ـ الوجود إلهي كله ، والظهور ظهور شبحي ، والدور الذي لعبه العقل الجزئي هو الأمر التفصيلي للأمر التكويني . التكوين كان في البدء انطلاقاً من فعل كُن وهو وجودي بحت . . أما التفصيل فكان للأسماء وتعينها واشتقاقها وتضادها وتماثلها وتفرعها من أصولها واجتماع فروعها ، والأمر بين داخل وخارج وخارج وداخل هذا الوجود أشبه بإنسان يقف بين عدد من المرايا ، في كل مرآة يرى وجهه فلا يميز بين وجهه ووجهه ، ولا يدري أين وجهه حتى يضع يده على وجهه . . . وكلُ من الوجوه الظاهرة موجودة مفقودة ولهذا قلت إن وجودها شبحي وكل منها أصيلة لاعتماد الممكنات على بعضها بعضاً في مجال الظهور . ولولا الوجه الأصيل ما ظهرت أصلاً الوجوه المرئية في المرايا ، ويكفي أن تضع مرآة أمام مرآة حتى ترى في المرآة وجوهاً لا نهائية . فالوجود أحدث وجوداً والوجود الجديد أحدث وجوداً أحدث . وتحار أنت عند التأمل في فصل

القديم عن الجديد والجديد عن القديم ومن كان الأصل للفرع والفرع للأصل ، وهذا ما يحدث في مجال افتضاض الأسماء . لقد احتاج الوجه الأصيل إلى المرايا ليظهر إذ ما كان ليرى من غير مرآة . فمن كان يراه لو لم تكن هناك عين إضافية لترى العين الأصلية ؟

قلت وأنا أشعر بأنني سأُغْلَب على عقلي :

ـ آه ياسيدي ، أنت ما زلت تحيرني ، وكلما أردت الإمساك بطرف خيط ضاع مني . كيف ترى العين الإضافية العين الأصلية وقد قلت أن العين الإضافية غير موجودة ؟ ثم كيف تذيب العقل الجزئي في العقل الكلي وقد كنت اسندت إلى العقل الجزئي دوراً كبيراً في العمل ؟ .

قال :

ـ العقل نشاط ، وسماه هيغل نشاطاً عقلياً ، وهو لله ، إنه ميدان نشاط العقل الكلي . . هو أداة من أدواته . وإذا عدنا إلى الوجه والمرايا قلنا إن الوجه المرئي وجود لأنه مرئي ، مفقود لأنه غير أصيل ، والوجه غير المرئي مفقود لأنه غير مرئي رغم أصالته . واعتماد الوجوه الشبحية الوجه الحقيقي هو الذي جعل الرائي يضيع بين وجوه موجودة لا نهائية وهي في الوقت نفسه غير حقيقية . فالحقيقي تبدى في اللاحقيقي علماً أن نبع اللاحقيقي هو الحقيقي وكنا تحدثنا عن الصلة بين الوجود والشبح وظهور الوجود في الشبح ، وحاجة الواحد إلى الآخر حتى نجم عن هذا ما تراه في عالم الكثرة من كثرة هي موجودة مفقودة . فالمفقودُ موجود والموجود مفقود ، وابحث عن النقطة في الدائرة ، وابحث عن الدائرة من النقطة وحاول أن تخرج من هذه الدائرة خروجاً علمياً عن طريق الذوق والكشف وعندئذ ترى الأمر على حقيقته .

قلت للشيخ : لقد أورد ابن عربي تشبيه المرايا ، كما أن هذا التشبيه ورد في فلسفة أفلوطين .

هز رأسه ببطء ونقر بأطراف أصابعه طرف الطاولة وقال :

ـ صحيح ، ما تقوله صحيح ، وما استخدمه الشيخ الأكبر وأفلوطين من قبله لا يمنع من أن يستخدمه من يأتي بعدهما . والمثال الذي ضربته للشمس وأشعتها استخدمه أفلوطين أيضاً ، ولكن التفصيل الوارد في التشبيه هو الذي يجعل التشبيه المستخدم ذاتياً أي تابعاً لمستخدميه . فلكل فيلسوف وصوفي وعالم أسلوبه ولغته ومصطلحاته رغم وجود تشابيه متشابهة أحياناً بين البعض منهم .

قلت مجترئاً :

ـ هل رأيت تشبيه المرايا في رؤ يا .

فكر ثم هز رأسه نفياً ثم أجاب :

ـ لا ، لكنني رأيتني في رؤ يا مع جمع من الناس ، وكان مصور فوتوغرافي يصورهم . التقط صورة لأثنين منهم ، ثم لثلاثة ، ثم لأربعة ثم لجمع ، حتى إذا وصل إليّ قلت له التقط صورة لي وأنا بإزاء الشمس . . واقتربت من قرص الشمس حتى جعلت وجهي أمام وجهها بل إن قوس وجهي طابق قوس قرص الشمس . وتعبير الرؤ يا أن التفصيل في عالم الكثرة هو للأسماء ومشتقاتها وتضادها والتراكيب الناجمة عن تفاعلها ، أي أنني نفيت الكثرة ، كما فعلت من قبل ، وهو ما يدعى في الفلسفة بالكم ، وأثبتُّ الأسماء وهو ما يسمى بالكيف أو الحد . وأنت ترى أنني كعادتي لم آت بشيء لم أره في رؤ يا . فالرؤ يا هي التي صورت الكثرة بدءاً من الواحد حتى الجماعة ، أيْ حولت الكثرة إلى صور أي أسماء . والله هو المصور ، وعين المصور هي الله . إذن الكثرة رُدَّت إلى صفات ، والصفات رُدت إلى عين واحدة هي عين الوجود الفياضة . قال تعالى : ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ ، وقال : ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلا ﴾ . أما وصول المصور إلي فهو العودة من الصفات إلى الواحد الذي اغتنى بمضمون الصور فصار في غنى الشمس وهي شمس الوجود الغنية القائمة بذاتها . ومطابقة قوس وجهي قوس وجه الشمس إشارة إلى ظهور الإنسان الكامل صاحب الأسماء الحسنى الذي كان قبل الخلق والذي ما خلق الخلق إلا لأجله والذي كان بظهر الغيب ذراً ثم تسلسل في ظهور الأنبياء منذ آدم وحتى

نبينا محمد ، ثم انتقل إلى الظهور في الأولياء الكمّل أمثال الغزالي وسلطان العارفين .

قلت للشيخ :

ـ بمناسبة الحديث عن الكثرة ـ الكم والأسماء ـ الكيف وتطور العقل وإزدياده غنى عبر الكيفيات أرى أن هيغل هو سيد هذه الفلسفة الجدلية التي استطاعت أن تهضم كل ما سبقها من فلسفات وغطت معظم ما لحقها من فلسفات أيضاً . الست معي ياسيدي في أن وجه الشبه كبير بين ما تقوله وبين الجدل الهيغلي ؟

ندت عن الشيخ آهة طويلة وظل ثواني شاخص الطرف ثم قال :

ـ ما حيرني فيلسوف مثل هيغل ، ولقد كنت أزمعت على اتهامه بأنه أكبر سارق عرفه التاريخ لفلسفة الصوفية وبالتحديد لابن عربي . فكل موسوعة هيغل الفلسفية هي جماع ما قاله الشيخ الأكبر تحت شعار فيعبدني وأعبده . ولا أدري على وجه التحديد أن كان هيغل قد اطلع على مؤلفات الشيخ الأكبر ، ولا إن كانت اعمال الشيخ قد ترجمت إلى لغة يجيدها هيغل .

قلت : لقد مجد هيغل النظرة الشرقية إلى العالم ، هذه النظرة التي ترى كل شيء في الواحد ، وهذا الواحد يظهر في كل مظاهر العالم الطبيعية والروحية .

هز سبابته بقوة وقال :

ـ لكن انتقد الصوفية ودعواهم في أن معرفة الحقيقة مرتبطة بالكشف والذوق والوجدان ، وحمل عليهم لأنهم انتقدوا طرق البحث والمنطق ، فهو بمثابة ابن رشد جديد رد على تهافت الفلاسفة للغزالي بتهافت التهافت . وفلسفة هيغل رائعة ، لكن المضحك المبكي في موقف هذا الفيلسوف تجلى في قول المثل (من مأمنه يؤتى الحذر) . فهذا الذي دعا للأخذ بوسائل المنطق للوصول إلى الحقيقة وأتى بما يعجز الإنس والجن عن الإتيان به قد جوزي شر جزاء حين

خرج عليه أحد تلامذته بالذات ووصف فلسفته بأنها فلسفة تمشي على رأسها . فما هذا المنطق الذي أدى إلى اتهامه بأنه يمشي على رأسه ، وما قيمة هذا المنطق الذي خرج بنتيجة مفادها أنه منطق مقلوب . . ثم أليست طبيعة النقد الموجهة إلى هيغل من قبل ماركس هي بالضبط . ما حذرت منه الصوفية بأن الحقيقة سبيلها الحدس والوجدان لا العقل ؟ فالعقل نفسه عاد فتناقض مع نفسه لما ورد هيغل المورد بدءاً من المطلق في حين عكس ماركس الآية فورد المورد بدءاً من المادة . العقل إذن لم يفلح في أن يجعل الملحد مؤمناً ولا المؤمن ملحداً ، وظلت قضية الإيمان والإلحاد إرادية سابقة للعقل والعقل أداة بيدها ووسيلة مسخرة . أليس من المحزن أن يقضي هيغل عمره مشيداً صرح فلسفته الموسوعية ثم تكون النتيجة أن يصف تلميذه هذا الصرح بأنه مقلوب ؟ الواقع نفسه أثبت إذن أن سبيل المنطق قاصر واعتماد أساليب البحث والاستنتاج غير كافية لجعل الناس يتفقون على فلسفة واحدة . إن كان هيغل سارقاً للصوفية فإن ذنبه يكون عندئذ ذنبين ذنب السرقة وذنب الطعن على مذهب الصوفية في الشرب ، وإن كان غير سارق فإن النتيجة كانت نصراً للصوفية الذين يقولون أن لا سبيل إلى الحقيقة دون الشرب من معين اليقين ، والشرب واحد ولا يختلف في تذوقه اثنان . كل الصوفية خرجوا بنتيجة واحدة . وهذا هو الإمام الغزالي حجة الإسلام وإمام أهل السنة والصوفي الذي كتب الاحياء كله دون أن يقرب علوم المكاشفات الغزالي نفسه عاد فكتب مشكاة الأنوار التي قال عنها الدكتور عفيفي إنها تعبير عجيب عن فلسفة وحدة الوجود التي قال بها الشيخ الأكبر . من يشرب من عين اليقين يفق من حيرة العقل وتخبطه بين الروح والمادة والوجوب والإمكان والعين والعيان . وبالإضافة فلقد ظل هيغل واقعياً ضمن حدود الكم والكيف والمقولات والواحد والكثير والتطور ولم يستطع أن يقترب من حدود الغيب ليقول شيئاً عن ميتافيزيقا الروح . . فحدود العقل تحول دون طرق تلك الأبواب العالية . لقد كتب هيغل (ظاهريات الروح) أي الروح الظاهرة ، أي أن هيغل أعلن أن من الممكن التعبير عن طبيعة الروح أو طبيعة الشيء في ذاته ، وأن هذه الطبيعة ليست إلا الطبيعة خارجاً ، وأن الروح الظاهرة هي

الروح الباطنة . وفي مجال ظهـور الروح جـال هيغل وصـال لكن التصدي لفهم الشيء في ذاته محال بالنسبة إليـه وإلى غيره . ولقـد أعلنت الصوفيـة من قبل أن مـن المستحيل معرفة الله دون حجاب الصور والأسماء ، لأن الله نـور ، والـنور لا يرى بل ترى ظواهره . فهيغل متنطع متبجح رغم كل الأعمال العـظيمـة التي تركها للناس من بعده .

obeikandl.com